

الموسوعة ان وايتهد نال « وسام الاستحقاق »
دون ذكر البلد الذي منحه الوسام . وتقول ان
ماك آرثر «عين رئيسا لاحدى المؤسسات ١٩٥٢»
دون تسميتها .

نخشى ان يكون بعض كتاب هذا العمل
الضخم ، من ذوي الاسماء اللامعة ، قد اعطوا
المواضيع التي عهد اليهم امر التحقيق فيها والكتابة
عنها اقل بكثير مما تستحقه من الوقت ومن الجهد
ومن التدقيق . وهي ، بالطبع ، ليست المرة الاولى

التي يعطي فيها كتاب عرب كبار ما لا يمتزون
به لو كان اسم كل واحد منهم موجودا على المقال
الذي وضعه . وليست المكان الوحيد الذي قدم
احسن الكتاب فيه اسوأ ما عندهم . لا بد ان
يدرك الباحث العربي ، يوما ما ، ان القارىء
اصبح من الوعي بان يفضل احسن ما عند كاتب
مجهول على مادة غير دقيقة تحمل اسماء ضخمة في
عالم الفكر والادب والبحث .

انيس صايغ

الاسلام تجاه تحديات الحياة العصرية

بقلم حسن صعب . دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٥

لقد اختار الدكتور حسن صعب موضوعا من
تلك الموضوعات المترامية الاطراف المختلفة
الابعاد . موضوعا يمتد طولا ثلاثة عشر قرنا ،
ونصف القرن ، ورابع القرن ، ويزيد . ويمتد
عرضا الى بلدان كثيرة في المجتمعين الاسيوي
والافريقي ، والى بلدان انحسر عنها الاسلام في
المجتمع الاوربي - وان تركت في تراثه الثقافي
والحضاري آثارا خالدة .

اختار هذا الموضوع الذي تجيش في صدره وبين
طياته الآراء والافكار ، والنظريات والمذاهب ،
 والتراث الثقافي المتعدد الانواع والالوان ، ليجابه
به تحديات الحياة المعاصرة . ومن هنا كان اشفاقي
على الصديق والزميل .

لست انكر انه المعني ذكي ، ولست انكر انه
واسع الاطلاع ، ولكنني انكر عليه ان يكون قد
اطلع حقا ، وادرك حقا ، كل ما في الاسلام من
نظريات ومذاهب ، ومن افكار وآراء - على ما
في الشقة من بعد ، وما في المسافة من اتساع - ليجابه
بكل ذلك تحديات الحياة المعاصرة ، وقيمها على
اساس من الاسلام .

اني انكر عليه ذلك ، وارى طابع ذلك في
الكثير مما كتب .

ما كاد بصري يقع على عنوان ذلك الكتاب
الذي اخرجه للناس ، منذ اشهر قلائل ، الصديق
الدكتور حسن صعب ، حتى اشفت على المؤلف
وعلى نفسي في وقت معا .

اشفت على المؤلف لاني ادرك الادراك التام
ان امثال هذه الموضوعات التي تمتد طولا الى ما لا
نهاية ، وتمتد عرضا الى ما شاء الله ، قد تدفع
بالباحث الى مواقف حرجية لا يحسن الخروج منها
الا على حساب العمق والدقة .

ان امثال هذه الابحاث لا تمكن الدارس من ان
يلم بجميع المواقع ، وان يدرك كل ما في هذه
الموضوعات من ابعاد . ومن هنا يعجز العجز
كله عن الامتداد عمقا ، وعن استكشاف ما في
الاعماق من در وصدف ، وعن اغناء الحياة الفكرية
بالجديد من الحقائق او بالحقائق التي قد تقلب الحياة
الفكرية رأسا على عقب .

ان امثال هذه الموضوعات لا تغني غناء الابحاث
الدقيقة ، المحددة ، الواضحة المعالم ، التي تمكن
الباحث من الغوص واستكشاف الحقائق . وهذا
اول خلاف يقوم بيني وبين الدكتور حسن صعب
في التماس الموضوعات ، ودراستها ، ومحاوله
الكشف عما فيها من حقائق ؛ انه يمضي اتساعا - اي
طولا وعرضا - وانا امضي عمقا فيما اقدر لنفسي
من موضوعات .

ولنبداً بذلك الذي اشار اليه الدكتور صعب

وعاد فأكده في ذلك الحوار الذي نقلته لنا مجلة «الحوادث» البيروتية، والذي قال فيه اجابة عن سؤال وجه اليه : الاسلام هو تعاليم وسلوك - اي فكر وحياة ، فاذا شئنا ان نفكر فيه تفكيراً كاملاً فان علينا ان نفكر بالجانبين معا - اي ان علينا ان نفكر بما تطالع به الحياة العصرية تعاليم الاسلام الاساسية من تحديات . كما ان علينا ان نفكر فيما تواجه به هذه الحياة المسلمين انفسهم من تحديات . فليس هناك مجال للفصل بين الوجهين - وان كان هناك مجال للتمييز بينهما . . . الخ» .
وارى ما لا يراه الدكتور حسن صعب في هذا الموقف .

ارى وجوب الفصل بين الوجهين اللذين يشير اليهما - اي بين الاسلام الالهي والاسلام البشري - واره ضرورة لازمة لا يمكن ادراك التحدي واستبانة موقفنا منه الا على اساس منه .
كما ارى ان عدم الفصل هذا هو الذي اوقع الدكتور حسن صعب في مأزق لم يخرج منها الا على حساب الحقيقة الدينية .

من المسلم به ان الاسلام الالهي تعاليم وردت لنا من السماء ، وانها لاتزال القيم الوحيدة التي تحكم حياة الكثيرين منا ، وانه على اساس من تلك القيم يحياها المسلمون تحديات هذه الحياة المعاصرة . ومن المسلم به ايضا ان الاسلام البشري ليس الا الافكار التي نبتت في اذهان المسلمين من جراء تلك التجارب العديدة التي خاضوها في تاريخهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي الطويل - وهي افكار لا يمكن ان تكون بمنزلة تعاليم السماء في نفوسنا وفي القوة التي تمنحنا اياها في مجابهة التحديات .

والفرق بين النوعين ، من حيث هذا الاثر ، يتبين عندي في ثلاث نقاط :

الاولى ، ان اثر تعاليم السماء في مجابهة التحديات المعاصرة اقوى بكثير من اثر تعاليم الفكر البشري . فالتعاليم الاولى تفرض علينا الموقف ولا تترك لنا شيئاً من الحرية في الاختيار ، وتعد رفضنا اياها او خروجنا عليها زندقه واحداً - بينما الثانية لا تملك هذه القوى ، وتتركنا لانفسنا نختار ما فيه مصلحتنا .

الثانية، عدم الفصل بين الوجهين يوهم عند الكثيرين انها بمنزلة سواء - وهذا هو الذي دفع بالكثيرين من المسلمين الى ان يرفعوا اقوال الاقدمين وبخاصة علماء الكلام واصحاب المذاهب الى منزلة تعاليم السماء . وكان لذلك اثره القوي في تقييد حريتنا وفي عجزنا الذي نراه عن الخلق والابتكار .
الثالثة ، ان هذه المنزلة التي احتلتها اقوال الاقدمين قد شكلت مع طول الزمن قيوداً كثيرة تضغط على العقل البشري وتحول بينه وبين الحرية والانطلاق . وهذا هو السبب فيما ارى في تخلف المسلمين عن الركب ، وفي عجز الفكر الاسلامي عن التحليق في السماء .

ان الفصل بين الوجهين امر ضروري ، ولو فصل الدكتور صعب بينهما لجنب نفسه كثيراً من المآزق ، ولقدم للاسلام والمسلمين كثيراً من الفوائد .

لو فصل الدكتور صعب بين الوجهين لتبينت له في سهولة ويسر هذه الحقائق التي تحدد في بساطة موقف الانسان المسلم من تحديات هذه الحياة .
لقد فرقت تعاليم السماء بين ما يقبل التغيير ، وما لا يقبله .

ولقد فرقت هذه التعاليم ايضا - فيما يقبل التغيير - بين ما هو من حق الله وما هو من حق الانسان . وبذلك حددت موقفنا من هذه التحديات .

تذهب تعاليم السماء الى ان ما هو من المعتقدات الدينية الخاصة بالله وباليوم الآخر ، وبالجزاء على العمل ، لا تقبل التغيير - ومن اجل هذا جاء بها جميع الرسل والانبياء - وهذا يجعل موقفنا واضحا ، فنحن انما نقيم التحديات على هذا الاساس ، فما اتفق معنا قبلنا وما اختلف واياها رفضناه . وتذهب تعاليم السماء ايضا الى ان العبادات ، وان التحليل والتحرير الدينيين ، بما يقبل التغيير - ولكن التغيير فيهما حق من حقوق الله لانه وحده المقصود بالعبادة ، وهو الذي اوحى الى الرسل والانبياء بما نال الشعائر الدينية من تغيير في التاريخ الطويل للرسل والانبياء . وهذا ايضا يجعل موقفنا من تحديات الحياة المعاصرة واضحا ، فنحن نرفض منها ما ينال هذه النواحي بتغيير او تبديل .

وما تبقى بعد ذلك بما يقبل التغير فامرہ متروک
للانسان ، يقبله او يرفضه على اساس من المصلحة
العامه ، بشرط ان يتحرى في سبيل تحقيق هذه
المصلحة الحق والعدل .
هذا هو الموقف بحذاقہ - وتلك هي تعاليم
السماء .

مثل آخر اضربه ، ابين فيه كيف توقع هذه
الموضوعات المترامية الاطراف الباحث في المآزق
الحرجة التي لا يستطيع الخروج منها الا على
حساب الحقيقة .

هذا المثل هو ذلك الفصل الذي كتبه الدكتور
صعب عن الديمقراطية وكيف انها تجسيم لقيم
الاسلام الروحية والخلقية .

لقد كنت احب من الدكتور صعب ان يبين
للقارئ، اولا مقومات الديمقراطية في الاسلام . ولو
فعل لاعطانا الاساس الفكري الذي نجابه به التحديات
المعاصرة من دون ان نلجأ الى ما لجا هو اليه
من ابراز لثقافته الخاصة ، ومن دعواه بان
الديمقراطية المعاصرة تجسيم لقيم الاسلام الروحية
والخلقية .

لقد ذهبت تعاليم السماء الى فرض الديمقراطية،
ودعت النبي عليه السلام الى ممارستها ليضرب لمن
بعده الامثال ، ثم تركت الباب مفتوحا على
مصراعه ليكيف المسلم ديمقراطيته حسب الزمان
والمكان .

وديمقراطية الاسلام لا تدخل ميدان المعتقدات
الدينية لانها لا تقبل التغير بحال من الاحوال ،
ولا تدخل ميدان العبادات لانها حق من حقوق
الله ، وانما تدخل فقط ميدان هذه الحياة الدنيا بما
فيه من قضايا ومعاملات .

ولقد استشار النبي عليه السلام اصحابه ، ونزل
في بعض الحروب عند مشورتهم وعاتبه القرآن .
وصعد النبي الى الرفيق الاعلى تاركا للناس امر
اختيار من يخلفه ، لادراكه عليه السلام ان هذا حق
من حقوق الناس .

ورأت تعاليم السماء ان يترك للناس امر ما لم
يرد فيه نص قطعي الدلالة ، ولم يكن ذلك عن سهو
او عن خطأ او عن اهمال ، فحاشاه سبحانه من ذلك ،

وانما كان ذلك تربية للناس لمباشرة شؤونهم بانفسهم .
ولقد كانت تعاليم الاسلام هي الرافعة للوصاية
عن البشر حين جعلت عمدا خاتم الانبياء ، فقد كان
ذلك ايدانا بحق العقل البشري في تحمل تبعات
ومسؤوليات هذه الحياة - وهو حق جماعي في
الاسلام .

ان تعاليم السماء قد حددت فيما يخص الميدان
الديمقراطي موقفنا من تحديات هذا العصر .
فالاساس موجود ، والمضمون قد يتسع ويضيق
حسبا للظروف والمناسبات .

ان الدكتور صعب لم يشر من قريب او بعيد
الى الاسلام ، باعتباره تعاليم الهية ، والى موقفه من
الديمقراطية ، وعرض علينا فقط قراءاته هو البعيدة
كل البعد عن الفكر الاسلامي . ومن هنا كانت
تغطيته للموقف بدعواه ان الديمقراطية تجسيم
للقيم الروحية والخلقية للاسلام .

وبعد ، فمع اختلافي مع الصديق الدكتور
حسن صعب في بعض المواقف ، احمده ولوجه هذا
الباب ، واحمد له مواقفه النيرة من فصول هذا
الكتاب - وبخاصة ذلك الفصل الذي استعرض
فيه الموقف بين الاسلام والمسيحية عبر التاريخ .

ولقد كنت احب منه ، واحب له ، ان يضي في
كل فصول الكتاب على نسق من هذا الفصل القيم .

محمد احمد خلف الله